

مَطْبُوعَاتُ الْمَجْمَعِ الْعِلْمِيِّ الْعَرَبِيِّ بِدِمَشْقِ



الوهراني ورقعة

عَنْ مَسَاجِدِ دِمَشْقِ

مُحَمَّدُ بْنُ مَحْرُزِ بْنِ مُحَمَّدِ الْوَهْرَانِيِّ

(المتوفى سنة ٥٧٥ هـ)

تَحْقِيقُ

الدكتور صلاح الدين المنجد

دمشق

١٣٨٤ هـ = ١٩٦٥ م

مَطْبُوعَاتُ الْمَجْمَعِ الْعِلْمِيِّ الْعَرَبِيِّ بِدِمَشْقِ



الوهراني ورقعة

عَنْ مَسَاجِدِ دِمَشْقِ

مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدِ الْوَهْرَانِيِّ

(المتوفى سنة ٥٧٥ هـ)

تحقيق
الدكتور صلاح الدين المنجد

دمشق

١٣٨٤ هـ = ١٩٦٥ م

تهويد

- ١ -

كان عصر نور الدين محمود بن زنكي (المتوفى سنة ٥٦٩ هـ) بداية العصر الذهبي الثاني في تاريخ دمشق . فبعد عصر الأمويين (٤٠ - ١٣٢ هـ) ، لم تشهد هاذه المدينة حقبة أكثر ازدهاراً . ورخاءً ، وأشدّ قوّة ، وأحفل بالأمور الجسام والحوادث الكبار ، من عهد نور الدين والأيوبيين (٥٤٩ - ٦٤٨) (١) .

في هاذا العصر الذهبي الثاني كانت دمشق قبلة الأنظار تهوي اليها أفئدة الناس من كل حدب وصوب ، من المدن القريبة ، والبلدان القاصية . (٢) وقد استهوت الباب المغاربة والأندلسيين خاصة فسارعوا اليها ، وقالوا : « إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لاشك فيها ، وإن كانت في السماء فهي بحيث تسامتها وتحاذيها » ، (٣) بل أوصوا بقصدها

(١) عن هاذه الحقبة انظر كتابنا « دمشق في القرن السادس الهجري » والمصادر المذكورة فيه .

(٢) انظر مثلاً مقالتنا « دار الحديث العروية بدمشق » ، في مجلة المجمع العلمي العربي ، المجلد ٢٩ ، الجزء الثاني ؛ وجزء من الفوائد المنتقاة عن أبي العباس محمد بن يعقوب الأصم (مخطوط في الظاهرية ، مجموع ٢٨ ، الرسالة الخامسة ، ورقة ٣٥٦) .

(٣) القول لابن جبير ، الرحلة ص ٢٣٥ (طبعة صادر ، بيروت ١٩٥٩) .

والسكنى فيها^(١). فزارها بعضهم زورة قصيرة تبركاً بها وبمشاهدها ، أو أخذاً للعلم عن علماءها . وحلا العيش فيها لآخرين منهم وطاب ، لما وجدوه من إنعام ، وإكرام ، وترحاب ، فأقاموا بها ، واتخذوها وطناً . (٢) فممن هؤلاء المغاربة الذين رحلوا الى دمشق وأقاموا فيها محمد بن محرز بن محمد الوهراني^(٣) . كان أديباً صناعته الإنشاء . أقدم من ترجم له هو القاضي ابن خلكان قال عنه إنه « أحد الفضلاء الظرفاء ، قدم من بلاده الى الديار المصرية في أيام السلطان صلاح الدين - وفنّه الذي يمتُّ به صناعة الإنشاء . فلما دخل البلاد ورأى بها القاضي الفاضل وعماد الدين الاصبهاني الكاتب وتلك الحلبة علم من نفسه أنه ليس من طبقتهم ، ولا تنفق سلعته مع وجودهم ، فعدل عن طريق الجِد ، وسلك طريق الهزل ... » (٤) .

فيُفهم من قوله أن الوهراني عدل عن طريق الجِد بعد أن لقي العماد والفاضل عند صلاح الدين بمصر .

وهذا الكلام يحتاج الى تصحيح . فسلوك الوهراني طريق الهزل كان قبل أن يصبح صلاح الدين سلطاناً . لأنه كتب كثيراً من مقاماته الهزلية ورسائله في أيام نور الدين بدمشق كما سنرى . ولم يجتمع العماد والفاضل بمصر إلا بعد موت نور الدين .

(١) ابن جبير يقول : « فن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل الى هذه البلاد » الرحلة ، ص ٢٥٨ .

(٢) لزيادة التفصيل انظر كتابنا « دمشق في نظر المغاربة والاندلسيين » .

(٣) وهران بلدة معروفة في المغرب الأوسط (الجزائر اليوم) .

(٤) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ٤ : ١٩ (طبعة محيي الدين عبد الحميد) ؛ وقد

تابع ابن خلكان على ما قال كل من ترجم بعده للوهراني .

ثم إن مجيئه من بلاده الى الشرق لم يكن في أيام صلاح الدين ، بل كان أيام نور الدين . وقد وصفه في إحدى رسائله عندما سئل عنه وهو في بغداد ، فقال عنه « سهم للدولة شديد ، وركن للخلافة شديد ، وأمير زاهد ، ومملك مجاهد ، تساعده الأفلاك وتخدمه الجيوش والأملك . » (١) وعجيب أن يخطيء ابن خلّكان مثل هذا الخطأ ، والأمر واضح ، على تتبعه وشدة تحريه . وقد قبعه فيه الصفدي في « الوافي » (٢) فقال : « قدم من المغرب الى مصر وهو يدعي الانشاء فرأى الفاضل والعماد . . » والذي عرفناه عن سيرته ، بعد مطالعة آثاره المخطوطة ، خاصة أنه زار دمشق في أيام نور الدين واتصل به (٣) . وأنه مرّ بصقلية ، وزار بغداد . ثم اتخذ دمشق داراً واستوطنها . وكان نور الدين شديد العطف على المغاربة ، فوجهت اليه خطابة مسجد داريتاً . فبقي فيها . وقد زار مصر . ورجّح أنه زارها بعد وفاة نور الدين . وعاد الى دمشق ، وبقي في داريتاً حتى توفي سنة ٥٧٥ هـ ، أيام صلاح الدين . ودُفن على باب تربة أبي سليمان الداراني (٤) . وله رسالتان كتبها الى صلاح الدين « يتوقع نظرة من سعوده ، أو درّة من نجار وعوده » (٥) .

-
- (١) الوهراني ، جليس كل ظريف (مخطوطة جامعة برنستون ، ورقة ٤ آ) ؛ وأبو شامة الروضتين ٥٨٤/٢ (ط حلبي) .
- (٢) الصفدي ، الوافي بالوفيات ٤ : ٣٨٦ (تحقيق ديدرنغ) ؛ والظر أيضاً مثل هذا القول عند الزركلي في الأعلام ٢٤١/٧ ، وكعالة في معجم المؤلفين ١٧٤/١١ .
- (٣) يذكر الوهراني في « منامه » الكبير حادثة وقعت في دمشق لأحد من يذكرهم ، في دار الفوّارة بجيرون ، في شهر سنة ٥٥٣ هـ .
- (٤) ابن خلّكان ، المصدر السابق . وعن داريا وأبي سليمان ارجع الى تاريخ داريا للخولاني .
- (٥) جليس كل ظريف ، ورقة ٢٢٢ آ - ب .

استطاع الوهراني أن يجذب القلوب اليه . فقد كان « ظريفاً خفيف الروح » ، وكان بارعاً في الهزل والسخرية . فصبَّ سخريته وتهكمه على كبار علماء دمشق وفقهائها وأطبائها وكتّابها كالتاج الكندي ، والمهذب ابن النقاش ، والقاضي الفاضل ، والقاضي ضياء الدين الشهرزوري ، والقاضي ابن أبي عصرون ، وغيرهم . ولم يسلم من لسانه وقلمه علماء مصر ورجالها أيضاً ، كالخبوشاني ، وابن ممتاي . فألّف رسائل هزلية مختلفة . وابتدع فن المنامات الأدبية . وقد شُهر « منامه » الكبير « الذي سلك فيه مسلك أبي العلاء في رسالة الغفران » (١) ، و « جمع فيه أنواعاً من المزاح والأدب » (٢) . فتخيّل أنه رأى في المنام كأن القيامة قامت . ومنادياً يُنادي : هلموا الى العرض على الله . فخرج من قبره حتى بلغ أرض المحشر . فلقى هناك كثيرين ممن عاصره وعرفه ، أو مات قبل . فسخر منهم جميعاً وذكر ما حوسبوا عليه .

وقد جمع في كتابه « جليس كل ظريف » الكثير من رسائله ومناماته وفصوله الهزلية . (٣)

والذي يُطالع آثار الوهراني هاذة تبدو له براعته في التهكم والتصوير الهزلي . كان لا يتورع عن السخرية بنفسه . متخيلاً ما يقوله أعداؤه عنه . وصف القاضي الفاضل فقال : « فلم أشعر إلاّ والحائط قد انشق » ، وخرج منه شخصٌ عجيب الصورة ، ليس له رأس ولا رقبه ، وإنما وجهه في صدره ، ولحيته في بطنه » (٤) ووصف مجلساً ضمّ القاضي الشهرزوري ،

(١) الصفدي ، الصدر السابق ، ص ٣٨٧ وقال : « لكنه ألطف مقصداً وأعذب عبارة » .

(٢) الذهبي ، العبر في خبر من غير (بالعين المعجمة) ٢٢٦/٤ (تحفيقنا) .

(٣) وفي دار الكتب المصرية مجموعة من رسائله أيضاً . انظر فهرس دار الكتب ١٦٢/٣ ؛ وبروكلمان ، الذيل الأول ص ٤٨٩ .

(٤) من رسالته الى مجد الدين ابن المطّلب . وتصوير الوهراني هذا أبرع من هجاء ابن عنين للقاضي الفاضل وسخريته بجدته .

وابن النقّاش ، وابن العميد ، جرى فيه حديث المغاربة الذين يأتون من الغرب الى الشام ، ومنهم هو نفسه فقال :

« فيقول ابن العميد : ضيَّعتم الوقت في حديث الوهراني ، والله إن ملك المغرب نحس . ما جاءنا قطّ منهم إلا حارس كرم ، أو ناطور بستان [مع] الركوة والتاسومة ، وهذا الوهراني من بينهم ، شهد الله ، أثقل على القلوب من الغدّة الخارجة في الحلق ، وأوحش من الورم النافر في الأوداج . فيندفع حينئذ ابن النقّاش بفلسفته فيقول : اللهم العن الوهراني من الجهات الست ، اللهم العن ما يُقابل الوهراني من الأوج الى الحضيض . اللهم العن الهيمولي التي شاركت العناصر في تكوينه . والله ما أعرف في مقعر فلك القمر ، ولا على محدودب هذه الكرة الترابيّة شرّاً من ذلك الخبيث »

« فيقول أبوالمعالى ابن العميد بفصاحته : بالله عليكم اقصروا واقتصروا . . . ما للوهراني عرض يُثم ، ولا مجد يُهدم . وهو دون كل ما ترموه (كذا) به ، وإن اشغالكم الوقت بحديثه يُضيع الزمان ، فإنه لا يصلح إلاّ للحمل المشعّل ، أو لنظارة القنبيط . والمصيبة أنه مع هذا يتتمكّتب ويتمشعر ، ويعمل أشياء تشبه جوف لحيته »

« ثم يشرع يحلو محاسن نفسه ، ويظهر فضيلته التي تقدّم بها على الأقران فيقول : يا غلام ! اغسل حلوق القوم من ذكر الوهراني بشيء من الكمثرى : العيّلاني ، والسكّري ، والعُثماني ، والسمرقندي ، والخلاتي ، والعزّي ، والبيطاربي ، والدينوّري ، والبردي ، والديجوري ، والخنافسي ، والحمدوني ، والصقلابي ، والمعنق ، والملكي ، والذهبي ، والرحبي ، وشيء من التفاح : البطيحي ، والبديدي (كذا) ، والبربري ، والنبطي ، والصيفي ، والحشخاشي ، والفضّي ، والحلواني ، والجنّابي ،

والقحاجي ، والهامي ، والفتحي ، والحديشي ، والقبتلياسي ، واللبناني . . . (١) .
« .. ثم يقعون (كذا) في هاذا الوادي من الحديث ، فيشتغلوا (كذا)
عن ذكر وهران » .

« هاذا إن صدق ظن الخادم وتخيّله ، فالأمر يجري على هاذه الصورة » (٢) .
وكتب الى رجل اسمه قسيم الأعور رسالة ، كلها سخرية ، خاطبه فيها بقوله:
« يا مولاي الشيخ الزاهد ادبوس الإسلام ، لت الشريعة ، قنطارية
العلماء ، باقوروت (كذا) الائمة ، طبل باز السنة ، نصر الله خاطرك ..! » (٣)
ووصف بعض ألفاظ قصيدة قالها التاج الكند ، في رسالة كتبها
اليه ، فقال :

« ... ألا ترى أنها لا ينطق بها اللسان حتى ينخلع منها الفك » ، مع
ما فيها من التدقيرم (كذا) ، والرقاعة المعجونة بالتبظرم ، ولأجل ذلك
جاوبتها الألسن بأنواع من الضم ... (٤) .

وهاكذا نرى من النصوص التي سقناها أن الوهراني كان « صاحب
دعابة ومزاح » على حد قول الذهبي ، وأنه « ما سلم من شر لسانه أحد

(١) هذا التعداد لأصناف التفاح والكمثرى ذو شأن كبير لمعرفة ما كان يوجد منها
في دمشق أيام الأيوبيين . وما زال بعض هذه الأصناف موجوداً حتى يومنا . وقد
تعمدنا نقل النص لمعرفة وفي معجم الألفاظ الزراعية أن شجر الكمثرى اسمه
Poirier بالفرنسية وهو الصحيح . وهذا مدلول الكمثرى في مصر أما في الشام
فيسمونه إجاباً على حين أن الإجاب في اللغة هو ال Prunier بالفرنسية والبرقوق
في مصر .

(٢) جليس كل ظريف ، ورقة ٣٣ آ - ٣٥ ب ، من رسالته إلى الأمير شمس الدين
ابن الوزير البعلبكي .

(٣) جليس كل أنيس ، ورقة ٣٧ ب ، والأسماء المذكورة كلها أسماء لضروب السلاح .

(٤) المصدر السابق ، ورقة ١٧ ب .

من عاصره ، على قول الصفدي . وأنه كان كاتباً في الهزل والسخرية
والتهكم ، مقبول الكلام خفيف الروح ، على ما عنده من لدع وحدة .
وهو ثاني اثنين سلطهما الله على أهل دمشق أيام الأيوبيين : ابن عُنَيْنٍ في
« مقراض الأعراض » شعراً ، وهو في « رسائله » و « منامه » نثراً .
واعتقد أن السبب الذي دعاه الى اتباع هذا الطريق هو طلب المال .
فقد كان يسمى إلى جمعه . يحدثنا هو عن نفسه فيقول :

لما تَعَذَّرَتْ مَآرِبِي ، واضطربت مغاربي ، ألقيتُ حَبْلِي على غاربي ،
وجعلتُ مذهبات الشعر بضاعتي ... فما مررتُ بأَمِيرٍ إِلَّا حَلَلْتُ سَاحَتَهُ ،
واستمطرتُ راحته ، ولا بوزيرٍ إِلَّا قَرَعْتُ بَابَهُ وطلبتُ ثوابه ، ولا بقاضٍ
إِلَّا أَخَذْتُ سَيْبَهُ ، وَأَفْرَغْتُ جَيْبَهُ ... (١) .

فهو يستمطر راحة الأمراء ، ويطلب ثواب الوزراء ، ويُنْفِرُ
جيوب القضاة .

ولم يغمز الوهراني نور الدين إلا لأنه كان لا يُعْطِي الأدباء والشعراء
الأموال . فقد قال عنه : « عُرِفَ بِالْحُلِّ الْجَدِيدِ لِلشَّاعِرِ الأديبِ . فما
يُرْزَى ولا يُعَزَى ، ولا لشاعرٍ عنده من نعمة تُجَزَى » (٢) .

وكيف كان أمر الوهراني فيما ابتغاه من سخريته ، فإنه يكاد يكون
نسيج وحده في أدبنا العربي ، فيما كتب . وهو جدير بدرامات واسعة
تُكْتَبُ عنه . وآثاره المخطوطة ينبغي أن تُنشر .

(١) جليس كل ظريف ، ورقة ١ ب .

(٢) انظر الروضتين ٥٨٤/٢ (نشرة محمد حلمي) وقد أخطأ المحقق في ضبط اسم

الوهراني ، فجعله يحيى بن محمد !

أما الرقعة التي نشرها ، والتي مهدنا لها بما ذكرناه ، فهي من مضمونات كتابه « جليس كل ظريف » . وهو كتاب نادر حلو وجدناه في مجموعة يهودا المخطوطة ، بجامعة برنستن بالولايات المتحدة الأميركية ، وهو محفوظ فيها (برقم 665 ah. ١ /) . ولم يعرف بروكلمن هذه المخطوطة .

وقد رأينا نشر هذه الرقعة لأنها من النصوص المتعلقة بتاريخ مدينتنا دمشق ، وخاصةً بتاريخ مساجدها . وخلصتها أن مساجد دمشق والضبياع التي من حولها أصابها في زمن نور الدين الخراب والضبياع . فاجتمعت هاذه المساجد ، ولجأت الى أميرها وسيدها جامع بني أمية . وكتب لها جامع النيرب قصة قدّموها اليه . ذكر فيها ما تلقاه المساجد من جور العمال ، ونهب الوقوف ، وخراب الحيطان والسقوف . ثم تكلم جامع المزة ، ثم مشهد برزة . فلما استمع مسجد دمشق الى الكلام أشار أن يكتبوا شكواهم الى قاضي القضاة أبي سعد بن عصرون . فقرأها وكتب على ظهرها هجاءً لمسجد دمشق . فغضب المسجد ، ورفع شكواهم مع شكواه الى الملك الزاهد نور الدين . فلما وقف نور الدين على ما كتبوا اهتم فأصلح أحوال المساجد . وعزل ابن عصرون .

هاذه خلاصة الرقعة . ومن الممكن أن يكون الوهراني قد كتبها لعلمه بحالة المساجد يومئذ ، وقد كان - كما مرّ بك - خطيباً في مسجد داريتا . ولعله كتبها ودسّها الى نور الدين نفسه ، فكانت بعهدها عنايته بإصلاح المساجد وتطهيرها مما ذكر أخباره أبو شامة وابن كثير وابن واصل ، وسبط ابن الجوزي ، وابن قاضي شهبه ، وغيرهم فقد تقدّم بإحصاء ما في محال دمشق من المساجد الخراب فأناف على مئة مسجد ، فأمر بعماره

ذلك كله . وعيّن له وقوفاً . (١) ورأى جامع دمشق دائراً فأتى بالقاضي كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري الموصلي فولّاه قضاء قضاة دمشق ، وولّاه نظر الجامع فأصلح أموره . وكذلك وقف نور الدين عليه أوقافاً لتطيينه . وذكر العماد الاصبهاني أنه عمر في سنة ٥٦٥ هـ جامع داريتا ، ومشهد أبي سليمان الداراني (٢) ، الى غير ذلك ، مما يدل على سوء حالة المساجد وصدق ما في الرقعة .

وتشير الرقعة أيضاً الى أن نور الدين عزل ابن عسرون بسبب إهماله المساجد . وابن عسرون هاذا هو شرف الدين أبو سعد عبد الله بن محمد ابن أبي عسرون الموصلي المتوفى سنة ٥٨٥ هـ . قدم الى دمشق لما فتحتها نور الدين سنة ٥٤٩ هـ فدرّس بالغزالية وولي أوقاف المساجد ثم سافر الى حلب ، ثم عاد الى دمشق بعد وفاة نور الدين ، سنة ٥٧٥ هـ . وهو الذي تنسب اليه المدرستان العسرونيّتان بدمشق وحلب . (٣)

ولم يذكر ابن خلكان ، ولا ابن كثير ، ولا ابن العماد صاحب الشذرات ، سبب تركه نظر أوقاف المساجد ، وهذه الرقعة تفيدنا في معرفة السبب .

وها هوذا نصّ الرقعة :

(١) ابن واصل ، مفرّج الكرب ٢٨١/١ : ابو شامة ، الروضتين ١١/١ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٣١٢/٨ ؛ البدر ابن قاضي شعبة النكواكب الدرّية (مخطوط) .

(٢) ابن كثير ، البداية ٢٦١/١٢ ؛ النعمي ، الدارس ٤٣٢/٢ . الأول نقلاً عن العماد ، والثاني نقلاً عن البدر ابن قاضي شعبة .

(٣) ابن خلكان ، وفيات ٢٥٦/٢ (ط . محبى الدين عبد الحميد) ؛ وانظر الدارس ٣٩٨/١ .

نسخة الرقعة التي رفعها المساجد

الى جامع دمشق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمَّا تَحَكَّمَتْ يَدُ الضِّيَاعِ فِي مَسَاجِدِ الضِّيَاعِ ، وَأُرْتَجِحَ بَابُ
الْعَدْلِ وَأُغْلِقَ ، وَنُبَذَ كِتَابُ اللَّهِ وَخَلَقَ ، فَزَعَتِ الْمَسَاجِدُ إِلَى
جَامِعِ جَلَّقَ ، وَهُوَ يَوْمئِذٍ أَمِيرُهَا ، عَلَيْهِ مَدَارُ أُمُورِهَا . فَلَمَّا
وَصَلُوا إِلَى بَابِهِ ، وَاجْتَمَعُوا تَحْتَ قَبْتِهِ وَمَحْرَابِهِ ، كَتَبَ لَهُمْ جَامِعُ
النَّبِيِّ قِصَّةً إِلَيْهِ ، وَتَوَصَّلُوا إِلَى مَنْ عَرَضَهَا عَلَيْهِ . فَكَانَتْ
الرَّقْعَةُ مَسْطُورَةً عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ (١) .

«المهالكُ مساجدُ الكورة يُقَبَّلُونَ الأَرْضَ بَيْنَ يَدَيْهِ الْمَلِكِ
المعظمِ ، البديعِ الرفيعِ المكرَّمِ ، كهفِ الدينِ ، جمالِ الإسلامِ
والمسلمينِ ، بيتِ الأتقياءِ والصالحينِ ، مدفنِ الأنبياءِ والمرسلينِ ،
مَعْبَدِ المَلْتَيْنِ ، صاحبِ الدولتينِ ، بُنْيَةِ أميرِ المؤمنينِ ، أعلا
اللهِ منارِهِ ، وأيدِ أنصارِهِ ، وَعَمَّرَ بالتوحيدِ أقطاره .

(١) انظر جليس كل ظريف ، ورقة ٥ ب - ٧ ب .

« وَيُنْهَوْنَ إِلَيْهِ مَا يُقَاسُونَ مِنْ جَوْرِ الْعَمَالِ ، وَتَضْيَعِ
الْأَعْمَالِ ، وَنَهَبِ الْوُقُوفِ ، وَخَرَابِ الْحَيْطَانِ وَالسَّقُوفِ .
قَدْ أَلْفَهُمُ الظُّلْمُ وَالظَّلَامُ ، وَأَنْكَرَهُمُ الْمُؤَذِّنُ وَالْإِمَامُ ،
فَلَا يُسْمَعُ فِيهِمْ إِلَّا أَذَانُ الْبُومِ ، وَتَسْبِيحُ الْغَيْومِ . قَدْ
رَكَعَتْ أَرْكَانُهَا ، وَسَجَدَتْ سَقُوفُهَا وَحَيْطَانُهَا ، تَبْكِي عَلَيْهَا
النَّوَاقِسُ ، وَتَرْتِي لَهَا الْبَيْعُ وَالْكَنَائِسُ .

« يَا وَيْحَ مَنْ يَرِثِي لَهُ الشَّامَتُ »

وَقَدْ فَزَعْنَا ، أَتَيْهَا الْمَلِكُ ، إِلَى بَابِكَ ، وَأَوْثَيْنَا تَحْتَ جَنَابِكَ ،
فَافْعَلْ بِنَا مَا هُوَ أَوْلَى بِكَ .

« وَالسَّلَامُ . »

فَلَمَّا وَقَفَ عَلَى هَذِهِ الْحِكَايَةِ ، وَفَهِمَ مُقْتَضَى الْكِنَايَةِ ،
اسْتَوَى جَالِساً فِي مَقْعَدِهِ ، وَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى يَدِهِ ، وَقَالَ :
كَيْفَ وَأَنْتِي ، أُمٌّ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَغَنَى :
« وَمَا شَرِبَ الْعُشَاقُ إِلَّا بِقِيَّتِي
وَلَا وَرَدُوا فِي الْحُبِّ إِلَّا عَلَى وَرْدِي »

ثُمَّ أَشْرَفَ عَلَى إِيْوَانِهِ ، بَيْنَ حَفْدَتِهِ وَأَعْوَانِهِ ، وَأَقْبَلَ يُقَلِّبُ

طَرَفَه فِي الْجُمُوعِ ، وَيَكْفِكُفُ انْسِرَابَ الدَّمُوعِ ، لِمَا يَرَى مِنْ
اِخْتِلَالِهِمْ ، وَفَسَادِ اَحْوَالِهِمْ .

فَابْتَدَرَ جَامِعَ الْمَزَّةِ لِلْمَقَالِ ، فَتَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْ الْمَلِكِ وَقَالَ :
« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَضَى عَلَيْنَا بِالْخُرَابِ ، وَصَيَّرَ اَمْوَالَنَا كَالسَّرَابِ ،
وَجَعَلَنَا مَأْوَىً لِلْبُومِ وَالْغُرَابِ .

« اُحْمَدُهُ حَمْدَ مَنْ كَانَ فَقِيْرًا ثُمَّ اسْتَغْنَى ، وَاَدْرَكَ بِمَالِ
الْوَقْفِ مَا تَمَنَّى . وَاَشْهَدُ اَنْ لَا اِلَهَ اِلَّا اللهُ ، وَوَحْدَهُ لَا شَرِيكَ
لَهُ ، شَهَادَةَ عَالَمٍ عَامِلٍ ، مَتَحَمَّلٍ لِثِقَلِ الْاَمَانَةِ حَامِلٍ ، وَاَشْهَدُ
اَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، الصَّادِقُ الْاَمِيْنُ . صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ
وَعَلَى آلِهِ الطَّاهِرِيْنَ ، الطَّيِّبِيْنَ الْاَكْرَمِيْنَ .

« اَمَّا بَعْدُ اُثْبِتُ الْمَلِكُ السَّعِيْدُ ، ثَبَّتَ اللهُ قَوَاعِدَ اَرْكَانِكَ ،
وَشَيَّدَ مَأْوَىً مِنْ بِنْيَانِكَ ، فَاِنَّ الْخُرَابَ قَدْ اسْتَوْلَى عَلَى الْمَسَاجِدِ ،
حَتَّى نَخَلَتْ مِنَ الرَّاكَعِ وَالسَّاجِدِ ، وَاَصْبَحَتْ جَوَامِعُ الْغُوطَةِ
غِيْطَانًا ، لَا سَقُوفَ لَهَا وَلَا حِيْطَانًا . وَمَشَاهِدُ الْبِقَاعِ (١) ، صَفْصَفًا
كَالْقَاعِ ، وَمَسَاجِدُ حُورَانَ وَمَخَازِنَ وَاَفْرَانَ ، فَكَمْ بُنِيَّةٌ لَعِبَ

(١) يَشِيْرُ اِلَى الْبِقَاعِ الْعَزِيْزِيِّ ، فِي لُبْنَانَ الْيَوْمِ . م (٢)

الجورُ بأربابها ، ونَسَجَ العنكبوتُ على بابها ، وكم بيوت الله
غلقت دون أصحابها ، فَعَشَعَشَ الحمامُ في محرابها . ﴿ وَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي
خَرَابِهَا ﴾ ^(١) . وقد دَخَلَ أَيْهَا الْمَلِكُ عَلَى الْوُقُوفِ ، بِحِجَّةِ الْعِمَارَةِ
وَالسَّقُوفِ . فَاتَّفَقَتْ عَلَيْنَا الْأَهْوَاءُ ، وَاخْتَلَفَتْ فِيْنَا الْأَمْطَارُ
وَالْأَنْوَاءُ ، فَلَا يَزَالُ الْمَسْجِدُ يَنْهَارُ ، وَتَأْخُذُهُ السِّيُولُ وَالْأَنْهَارُ ،
حَتَّى يُمَحَى رَسْمُهُ ، وَلَا يَبْقَى مِنْهُ إِلَّا اسْمُهُ . وَأَنْتَ ،
أَيْهَا الْمَلِكُ ، عِمَادُنَا ، وَالْيَكُ بَعْدَ اللَّهِ مَعَادُنَا ، فَالْتَفَيْتَ إِلَى حَالِنَا ،
وَأَنْظَرْنَا فِي صَلَاحِ مَالِنَا ، يُصْلِحِ اللَّهُ أَحْوَالَكُ ، وَيُسَدِّدْ فِي الْخَيْرِ
أَقْوَالَكُ وَأَفْعَالَكُ . وَالسَّلَامُ .

ثم جلس .

فقال الملك : هاؤلاء المساجد ، فما بال المشاهد ؟

فبرز مشهدُ بَرَزَةٍ مُتَوَكِّئًا عَلَى مَسْجِدِ الْأَرْزَةِ ، وَهُوَ يُصَلِّصُ

وَيَصُولُ ، وَيَلْطَمُ وَجْهَهُ وَيَقُولُ :

(١) سورة البقرة ، ٢ ، الآية ١١٤ .

« كلما حاولتُ أشكو قصتي

لا ألاقى غيرَ ذي قلبٍ جريحٍ

يتشكى مثلَ شكوايَ له

يا لقومي ما عليها مستريح ! »

« أمّا بعدُ ، أيتها الملك السعيد ، أدام الله جمالك ، وبلغك في

العدوّ آمالك ، فإنّ مقام إبراهيم أصبح في كلّ وادٍ يهيم ،

ومغارة الدمّ ، لا تستفيقُ من النّمّ ، ومسجد الكهف ، لا يفتر

من اللحم ، وقبرَ شيث ، قد استأصله الخبيث . وقبرَ نوحٍ ،

يبكي وينوح ، وقبر جيلة مالنا فيه حيلة ، وقبر اليباس تعوّضنا

عنه باليباس . وأمست المشاهدُ كأربابها ، وأصبحت رسماً

كأصحابها . قد محتها العوادي ، وحدا بها الحادي :

« جرتِ الرياحُ على رسومِ ديارهمْ

فكأنّما كانوا على ميعادٍ »

فقال الملكُ : ربّ طارقٍ على غير وعد ، وفي كلّ وادٍ

بنو سعد .

ثم تنحنح عجباً ، وحرك رأسه طرباً ، واستفتح المقال بأن قال :

« الحمد لله الذي لا يحمد على المكروه سواء . نصب العدل
وسواه ، وأمدّه بعونه وقواه . فمن أضلّ ممن أتبع هواه
﴿ وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل
على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ﴾ (١) .

« أحمدّه على ما رزقني من الاحتمال ، وأشكره على ذهاب
العرض والجاه والمال . وأشهد أن لا إله إلا الله ، ونحوه لا شريك
له ، شهادة من أعطى الأمانة حقها ومستحقها ، وأنّ محمداً
سيد الأولين والآخرين رسول الله .

« أما بعد ، يا معشر المتكلمين ، وطائفة المساجد المتظلمين ،
فإنه والله ما يصل اليكم من الجور إلا ما يفضّل عني ، ولا ينتهي
اليكم إلا ما يُستعار مني . ولولا أن أركانى سليمة ، وبُنيتي
قديمة ، لأصبح جامع بني أمية ، يغني : يا دار مية .

« وقد والله شرقتُ بغصتكم ، وحرّتُ في قصتكم ، إن
رفعتُ أمركم إلى الملك العادل (٢) ، ردكم إلى الشيخ العالم

(١) اقتباس من سورة الجاثية ، ٤٥ ، الآية ٢٣ .

(٢) يعني نور الدين .

العامل^(١) ، فلا يرعى لكم حرمة ، ولا يراقب فيكم إلا ولا ذمة ،

« شكوى الجريح إلى الغربان والرحم »

والرأي عندي أن تكتبوا للشيخ قصة ، ولا تتركوا في صدوركم
غصة ، وأن تجعلوا في الكتاب أنواعاً من العتاب ، فإن التأم
رأيه برأيكم ، وإلا فالسلطان من ورائكم .

« أقولُ قولي هذا ، وأستغفر الله العظيم لي ولكم . »

فنادوا بالغلام ، فأتى بالدواة والأقلام ، فقال : استعذ بالله
من الشيطان الرجيم ، واكتب : بسم الله الرحمن الرحيم .

« من ملك الجوامع بجيرون إلى أبي سعد بن عمرو^(٢) »

« لقد أسمعت لو ناديت حياً »

ولا كن لا حياة لمن تنادي »

« أما بعدُ يا غدار ، فقد هيجت الألم ، وأبهمت الظلم ،
ومن استرعى الذيب فقد ظلم . طالما تغاضينا عن خياناتك ،
حتى اكتنزت الأموال وادخرتها ، وجمعت الذخاير واعتزلتها .

(١) يعني ابن أبي عمرو .

(٢) كذا مشكولة في الأصل بضم العين .

أَمِنْ أَجْلِ هَذَا كَانَتْ سِيَا حَتُّكَ ، وَبَسِيْبِهِ كَانَتْ نِيَا حَتُّكَ ؟
وَلَا أَجْلَهُ كُنْتَ تَسِيْحُ وَتَصِيْحُ ؟ حَتَّى غَبَطَكَ الْمَسِيْحُ . لَقَدْ
عَجِبْتُ أَتِيهَا الشَّيْخُ مِنْ مَحَالِكَ ، فِي ابْتِدَاءِ حَالِكَ ، وَمِنْ
فَسَادِ أَمْرِكَ عِنْدَ آخِرِ عُومَرِكَ ، صَلَّى بِالمَسُوْحِ وَالْقَيْدِ ،
حَتَّى ظَفَرْتَ بِأَنْوَاعِ الصَّيْدِ ، وَتَقَلَّدْتَ بِالقُرُونِ وَالْعِظَامِ حَتَّى
تَقَلَّدْتَ الذَّبُوبَ^(١) الْعِظَامِ . إِنْ كُنْتَ فِي هَذَا الْعَمَلِ ، إِلَّا كَمَا
قِيلَ فِي الْمَثَلِ :

« صَلَّى وَصَامَ لِأَمْرٍ كَانَ يَأْمَلُهُ
حَتَّى حَوَاهُ ، فَمَا صَلَّى وَلَا صَامَا »

« فَعَرَّفَنِي ، أَيُّهَا الشَّيْخُ الْمَفْتُونُ ، وَالْبَايِعُ الْمَغْبُونُ ، لِمَ بَعْتَ
الْبَاقِيَةَ بِالْفَانِيَةِ ، وَالْقَاصِيَةَ بِالدَّانِيَةِ ؟

إِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ إِلَّا لَعْلَةً ، أَوْ لِتَحْقِيقِ مَلَّةٍ ، إِمَّا أَنْ تَكُونَ
اسْتَطَبْتَ السَّكْبَاجَ ، وَاسْتَلَنْتَ الدِّيَابِجَ ، وَإِمَّا أَنْ نَصَدَّقَ أَهْلَ
الْأَحْقَادِ ، فِي أَنَّكَ نَصَيْرِي فِي الْإِعْتِقَادِ . لَا تَقُولُ بِالنَّجْعَةِ ،
وَلَا تَصَدِّقُ بِالرَّجْعَةِ . وَكِلَاهُمَا أَنْتَ فِيهِ مَلُومٌ ، وَمُعَاقَبٌ

(١) فِي هَامِشِ الْأَصْلِ : خ « الْأُمُورِ » .

وَمَذْمُومٌ . وَحَسْبُكَ قَدْ بَلَغَنِي مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنْ قِلَّةِ الْوَفَا ، مَعَ هَؤُلَاءِ
الضُّعْفَاءِ . فَأَحْسَمَ عَنْهُمْ أَذَاهُمْ ، وَلَا تُمْكِّنْ مِنْهُمْ أَعْدَاءَهُمْ . وَالسَّلَامُ .
فَلَمَّا وَصَلَتِ الرَّقْعَةُ إِلَيْهِ ، وَقَرَأَ مَا قَدْ انْطَوَّتْ عَلَيْهِ ،
﴿ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ، فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ، ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ .
ثُمَّ نَظَرَ ، ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ، ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ ^(١) وَشَتَمَ الْمَسَاجِدَ
وَبَانِيهَا ، وَلَعَنَ الْمَشَاهِدَ وَقَانِيهَا ، وَقَلَبَ الرَّقْعَةَ وَكَتَبَ فِيهَا :
وَصَلَّتْ رَقْعَتُكَ ، أَصْلَحَكَ اللَّهُ ، كَأَنَّهَا ضَرْبَةٌ مَوْتُورٌ ،
أَوْ نَفْثَةٌ مَصْدُورٌ ، تَخْلَطُ فِيهَا الْهَزْلُ بِالْجِدِّ ، وَتُبْدِي غَيْظَ
الْإِسِيرِ عَلَى الْقِدِّ . وَأَنِيمَ اللَّهُ ، لَقَدْ فَرَّقْتَ بَرِيًّا وَقَذَفْتَ
سَرِيًّا ، وَجِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا . فَاشْدُدْ مِنْ عِقَالِكَ ، وَتَأْيِدِ فِي
مَقَالِكَ ، فَمَا كُلُّ شَخْصٍ يُذَمُّ شِكْلُهُ ، وَلَا كُلُّ طَائِرٍ يَجُوزُ
أَكْلُهُ ، وَمَا كُلُّ بَيْضَةٍ شَحْمَةٌ ، وَلَا كُلُّ سُودَاءٍ فَحْمَةٌ . وَلَوْ
كَانَ لَكَ عَقْلٌ يَهْدِيكَ ، لَوَارَيْتَ أَوَارِكَ ، وَلَسْتَرْتَ عُوَارِكَ .
أَلَيْسَ قَدْ اشْتَهَرَ عِنْدَ الدَّانِي وَالْقَاصِي ، بِأَنَّكَ قَطْبُ الْمَعَاصِي ؟
حَتَّى لَقُبُوكَ : بِسُوقِ الْفَسُوقِ ، وَمِيدَانِ الْمُرْدَانِ ، وَرِحَابِ
الْقِحَابِ ، وَحَتَّى قَالَ فِيكَ الشَّاعِرُ :

(١) اقتباس من سورة المدثر ، ٧٥ ، الآيات ١٨ - ٢٢ .

« تجنّب دمشق ولا تأتِها
وإن راقك الجامعُ الجامعُ
فسوقُ الفسوقِ به قائم
وفجرُ الفجورِ به طالعُ »

لا جرم أن الله قطعك بالطريق ، وعاقبك بالحريق ،
وعذبك بالنيران ، وقرّنتك بشرّ الجيران ، وجعل الميضر
على أبوابك ، والزطّ في قبلة محرابك . وجعل خطيبك أفوه
دايضا ، وإمامك أعمى ناقصا . فلو أنّك البيت المعمور لهجرت ،
أو بيت مكة لما حجبت . فتوقّف عند مقدارك ، وانظر في
ايرادك وإصدارك . والسلام . »

فلما وقف الجامع على رقعته ، ورأى ما فيها من رقاعته ،
قام وقعد ، وأبرق وأرعد ، وقال : اكتب يا غلام :

« باسم الملك العلام

من ألعاب الواجد ، إلى الملك الزاهد .

قال الحائط للوتد : لم تشقني ؟

قال : سل من يدقني .

أما بعد ، أيها الملك العادل ، أدام الله أيامك ، ونشر في

الخافقين أعلامك . فقد طاوأت بعدلك القمرين ، وسرت سيرة
العمرين ، فإن الله شرف بُنيتي وحرّمها ، وطهر بُقعتي وكرّمها .
طالما زوحتُ بالمناكب لما كنتُ هينكلاً للكواكب .
وكم أمسيتُ مشكاةً للأنوار وبيتاً لعبدة النار .
ثم انتقلتُ الى اليهود بعد انقراض ملة هود ، فتأنستُ
بالزبور ، وبالأنبياء في القبور .

ثم جاءت دولة الصليبان ، فقرّبتُ بالقربان ، ومعاشرة الرهبان .
ثم جاء الإسلام ، فتشرّفتُ بدين سيدنا محمد عليه أفضل
الصلاة والسلام .

فأنا المعظم في كل زمان ، والمقدم في كل قران .
وكيف يسعك ، أيديك الله ، التغافل عن حالي ، والتحسين
لنهب أموالي ، ويدك مبدولة في البلاد ، ومتحكمة في رقاب
العباد ؟ وأي شيء يكون جوابك يوم النشور ﴿ إذا بُعثر
ما في القبور ، وحصل ما في الصدور ﴾ (١) . وقد أوقفك
موقف الذليل بين يدي الملك الجليل ، وأقول لك : أي
رب ! سلّ هذا لم أهملني ، وسلمني لمن أكلني ؟ فلا تردّ

(١) اقتباس من سورة العاديات ٤ ، ١٠٠ ، الآية ٨ ، ٩ .

جواباً ، ولا تحيرُ خطاباً ، ولا آخذُ منك ضميراً ولا كفيلاً ،
ولا أقبِلُ عنك شفيعاً ولا وكيلاً . فتقول : ﴿ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ
مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً . يَا وَيْلَتَا ، لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا .
لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ
لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾^(١) .

فَقَدَّم ، أيها الملك ، لِنَفْسِكَ ما تجده غداً في رَمْسِكَ .
وَأُخِذْ هاذِهِ التذكرة بالحساب ، قبل يوم الحِساب ، تبرأ من
التباعة ، وتدخل في أهل الشفاعة .

والسلام على مَنْ عَمَّرَ مساجدَ الاسلام ، ورحمة الله وبركاته .
فلما وقف نور الدين على كتابه ، وتجرَّع أليم عتابه ، التفت
إلى المساجد ، فرثى لهم ، وسدَّد أحوالهم ، وأسرَّها يوسف
في نفسه ، ولم يُبْدِها لهم .

ثم نظر الى ابن عسرون فأنزله واعتزله ، وحجبه عن بابه
واختزله ، وألقاه في سجن الصدود ، وخلَّده فيه الى يوم الخلود ،
وقرأ عليه : ﴿ الْإِنْسَانُ لِرَبِّهِ كَفُورٌ ﴾^(٢) .

* * *

(١) اقتباس من سورة الفرقان ، ٢٥ ، الآيات ٢٦ - ٢٨ .

(٢) اقتباس من سورة هود ، ١١ ، الآية ٩٥ .

ملحق

عن الأماكن المذكورة في نصّ الرقعة

حسب ورودها

جامع جائق : هو المسجد الأموي . أنظر عنه :

ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، المجلد الثانية (تحقيقنا) ص ٥ وما بعدها
(دمشق ١٩٥٤ م) .

المنجد ، خطط دمشق ، ص ٥٥ (بيروت ، ١٩٤٩ م) .
مجهول ، ذكر ما استقرّ عليه الجامع إلى سنة ٧٣٠ هـ . (تحقيقنا) ،
دمشق ، ١٩٤٨ م .

النعمي ، الدارس (تحقيق الأمير جعفر الحسيني) ٣٧١/٢ .
بدران ، مناداة الأطلال ، ص ٣٥٧ (نشرت بدمشق سنة ١٣٧٩ هـ على
نفقة الشيخ عليّ بن عبد الله آل ثاني . وهي طبعة سيئة جداً) .

جامع النيرب : النيرب قرب الربوة ، معروف . وهما نيربان . أنظر عنهما : ابن

طولون : القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية . (تحقيق الأستاذ دهمان) .
و جامع النيرب وُصف بأنه كان حسناً تُقام فيه الجمعة . ثم خرب ،
في آخر العهد المملوكي ، وأخذت آلاته إلى عمارة تكية السلطان
سليمان ، سنة ٩٦٥ هـ . أنظر : النعمي ، الدارس ٤٣٨/٢ - ٤٣٩ .
وذكر ابن عساكر مسجدين في النيرب . سُمي الأول : مسجد
في النيرب الأسفل . والثاني : مسجد النيرب من مساجد القرى (تاريخ
دمشق ، المجلد الثانية ص ٨٩ - ٩٠) .

جامع المزة : المزة قرية قرب دمشق مع-رونة . وكانت تسمى مزة كلب لنزول

قبائل كلب بها . أنظر : المنجد ، منازل القبائل العربية حول دمشق .
في مجلة المجمع العلمي العربي ، المجلد الثلاثون . الجزء الأول ؛
وياقوت ، معجم البلدان ؛ وصفي زكريا ، الريف السوري ١٥٦/٢ ؛
محمد كرد علي ، غوطة دمشق .

ليس عندنا نصوص عن جامع للمزة الذي عناه الوهراني . وتوجد
نصوص عن جامع المزة الذي عمره الصفيّ بن شكر سنة ٦٢٢ هـ .
(الدارس ، ٤٣٢/٢) وجامع المرجاني بضواحي المزة (الدارس
٤٤٢/٢) .

- الغوطّة : غوطّة دمشق . معروفة . أنظر كتاب غوطّة دمشق .
البقاع : هي البقاع العزيزي . في لبنان اليوم . معروفة .
حورات : معروفة ، جنوب دمشق .
مشهد برزّة : برزّة قرية من غوطّة دمشق . معروفة . أنظر : غوطّة دمشق .
ومشهد برزّة هو الذي زعموا أنه مقام ابراهيم الخليل . أنظر :
العدوي ، الزيارات بدمشق ، ص ١٦ (تحقيقنا) .
مسجد أرزة : أرزة قرية كانت في محلة الشهداء ، على طريق الصالحية . دثرت
منذ زمن بعيد . لم يبق من آثارها إلاّ قبور الشهداء . أنظر :
العدوي ، الزيارات ص ١٥ ؛ ودهمان مقدمة القلائد الجوهريّة في
تاريخ الصالحية ، ص ١٨ ؛ وعلق في ص ٢٤٧ بقوله : « ومن
كلام العوام : ما بين برزّة وأرزة أربعون ألف نبي ، وفي قصيدة مصطفى
البكري التوسلية ، ورد :

ياربّ بالذات العليّة وبسرّ أسرار الهويّة

.

بالشام ثم ببرزّة مع أرزة والصالحية

مقام ابراهيم = مشهد برزّة .

- مفارة الدم : بجبل قاسيون . أنظر العدوي ، الزيارات ، ص ٥ ؛ والرعي ،
فضائل دمشق (تحقيقنا) ص ٦٢ - ٦٧ .

- مسجد الكهف : هو كهف جبريل . بجبل قاسيون . أنظر الزيارات ص ٦ .
قبر شيث : في قرية نبي شيث تبعد نحو (١٥) كم شرقي زحلة (البقاع) .
قبر نوح : في قرية كرك نوح شرقي زحلة وجوارها (البقاع) .
قبر الياس : في قرية قب لياس جنوب غربي شتورة (البقاع) .
جيرون : أنظر عنها ابن طولون ، فرّة العيون (تحقيقنا) ، وكتابتنا خطط دمشق .

